منظومة القيم عند الصينيين والعرب

علـيـم محمد
طالب دكتورة بكلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية
جامعة الجزائر -3-

ملخص

تعتبر الأصول الشرقية للثقافتين العربية والصينية من العناصر التي تحرك الرغبة الموجودة بينهما في الوقت الحالي من أجل التقارب وخلق علاقات أفضل. ويتوفر الصينيين والعرب على ارث تاريـخي وفلسفي عميق ومن أهم خصائصهم المشتركة أنهم يعيشون مع ماضيهم بشكل مميز وخاصة بالنسبة لموضوع القيم. إن موضوع القيم في العلاقات العربية-الصينية هو شكل من أشكال العودة إلى الماضي، فهو يحتل مكانة كبيرة في نفسية المجتمعات والنخب الصينية والعربية، على حد سواء، التي تلجئ إلى ذلك لتأكيد تميزها ولتتعاطف فيما بينها في عالم تسيطر فيه قيم الحضارة الغربية. يتطرق هذا المقال إلى عدد من أوجه التشابه والاختلاف بين المنظومتين العربية والصينية في أبعادهما القيمية، وإلى كل ما له صلة بإبداعاتهما في مجالات الفكر والفلسفة. بالنسبة للصينيين يُعتبر فكر كونفوشيوس أساس قيمهم الأخلاقية والفلسفية والاجتماعية تتبعه مدارس أخرى بقي تأثيرها محدود. تتشابه منظومة القيم لدى الجانبين في أكثر من وضع، ولكنها تختلف إلى حد كبير في الكثير من الجوانب.

Résumé

Les origines orientales des deux cultures arabe et chinoise sont parmi les éléments contribuant aujourd'hui au rapprochement entre les deux parties en vue d'établissement de rapports forts. Les peuples arabes et chinois disposent, à la fois, d'un héritage historique et philosophique profondément ancré dans le passé. Ils se distinguent particulièrement par des caractéristiques communes dont un attachement et un zèle prononcés à leurs valeurs anciennes. La question des valeurs culturelles dans les relations arabo-chinoises renvoie à ce passé ancestrale. Elle occupe une place importante dans la conscience des deux peuples qui recourent souvent à cette référence culturelle pour marquer leur différence et s'exprimer une certaine sympathie face à la culture occidentale dominante. Ce travail consiste à évoquer les aspects de similitude et de dissemblance existants entre l'échelle de valeurs arabe et chinoise, axée essentiellement sur la philosophie confucéenne. Bien qu'elles se ressemblent singulièrement par de nombreux critères, les deux échelles de valeurs ne sont totalement pas identiques.

الكلمات المفتاحية : العرب. الصين. القيم. التشابه. الاختلاف.

مقدمة

يتناول هذا المقال عدد مُحدد من المبادئ القيمية المعروفة المتداولة في البيئتين العربية المسلمة والصينية، وليست مقارنة شاملة بين الثقافتين التي تقتضي التحكم الجيد في طرق استخدام علم الأجناس وإلماماً كافياً بالوثائق التاريخية القديمة وبالتقاليد وغيرها من الشروط. وعليه، سيتم تفادي الدخول في التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالنصوص التأسيسية الخاصة بكل طرف. مثل هذا العمل سيمكن من تجنب الوقوع في جدال فكري أو معرفي قد يؤدي إلى الخروج عن جوهر النص الذي يسعى إلى البحث في أوجه التشابه والاختلاف بين منظومتي القيم عند العرب وعند أهل الصين الذين تبقى نظرتهم مشدودة أكثر إلى الكونفوشيوسية[1].

قبل هذا، يمكن تعريف القيم بأنها مجموعة من الاعتقادات والأحكام المكتسبة من البيئة الاجتماعية، فتتدخل في تحديد ما هو مرغوب أو غير مرغوب لدى الفرد أو الجماعة. تؤثر القيم في توجهات وأفعال الفرد وتختلف من مجتمع لآخر ولها معنيين موضوعي وذاتي[2]. تتضمن القيم مسائل واقعية وأخرى إدراكية تتدخل في تحديد السلوك وتكتسب من طرف الفرد الذي يأخذ بها بواسطة التعلم. يأتي هذا المقال في وقت نشهد فيه تزايد الترابط بين الصين والعالم العربي مع تطور جلي في شبكة المصالح والتفاعلات بينهما. ما يعني أن هناك احتكاك وتفاعل بين القيم السارية في البيئتين، ليس بالأمر والإكراه بل بأسلوب إنساني يعتمد في غالب الأحيان على الترغيب والنعومة. تؤكد الثقافة الصينية على نعومة القيم الصينية وتعاطفها مع القيم العربية، وعلى ما تحمله من إبداعات إنسانية هامة توفر للإنسان العربي والبشرية جمعاء القدرة على معالجة ما يطرأ من مشاكل وقضايا، وتساعد على تقديم الإجابات المطلوبة حول الكثير من التساؤلات من خلال الفهم والإدراك.

تفعل الثقافة العربية نفس الشيء حيث ترى بأنها تتوفر على منظومة قيمية ثرية وشاسعة موجهة لجميع الناس وخالية من أي نزعة استعلائية. تولدت هذه القيم العربية من خلال التراكمات المعرفية والفلسفية والدينية، بالإضافة إلى التجارب الحية للإنسان العربي التي تكونت عبر سلسلة من القرون.

في أغلب النصوص الرسمية المتداولة، يفتخر الجانبين الصيني والعربي بتناغم قيمهما بفضل الطابع السلمي الذي ميز دائماً العلاقات بينهما منذ طريق الحرير الذي كرس روح التلاقي والتسامح والتبادل الايجابي بينهما، عكس ما حصل مع حضارات أخرى لاسيما في الغرب تدعو إلى الهيمنة.

يُساعد هذا النمط من المقاربة للقيم على بناء فهم سليم للطريقة التي تشتغل بها عدد من المحددات والمسلمات في كلا العالمين كالمقدسات، الإيمان، الأخلاق والمُثل، الخير والشر، الحلال والحرام، القضاء والقدر، العدل والحاكم وغيرها.

سوف يستند هذا المقال إلى الفكر الحضاري الصيني القديم الذي يعود له الفضل في تكوين أسس المنظومة القيمية الصينية.إلا أن الاهتمام سينصب أكثر على الكونفوشيوسية التي يُنظر لها بمثابة عماد الفكر الصيني بعد أن تحولت إلى معتقد ديني لدى أكثرية الصينيين. تدخلت هذه المدرسة عبر الأزمنة المختلفة في حث الإنسان الصيني على الارتقاء والامتثال لمجموعة هامة من الضوابط والالتزامات الأخلاقية، فأدت إذن وظيفتها كعامل تطور تاريخي للمجتمع الصيني بواسطة ما تفرضه من ضوابط اجتماعية.

يتفق فريق واسع من الباحثين العرب على أن التعرف على القيم والمحددات الثقافية الصينية أصبح ضرورة تفرضها عديد الأشياء من ضمنها الانتشار المتزايد للإنسان الصيني في البيئات العربية. وفي السياق نفسه، هناك جهل للإنسان الصيني فيما يخص المسائل القيمية والسلوكية مما يفضي إلى الاعتقاد بأن الثقافة الصينيــة وأصولها ليست معروفة في البلاد العربية. إن قدوم الإنسان الصيني إلى الساحة العربية ظاهرة حديثة تطرح مسألة التعايش بين ثقافتين مختلفتين في أكثر من جانب رغم ما يشاع عن تناغهما وتعايشهما الايجابي خلال مراحل تاريخية مضت. فضلاً عن هذا، تُخصص الصين منذ سنوات موارد هائلة حتى تُمكن ثقافتها من الانتشار وتضع ذلك ضمن ما يعرف بالقوة الناعمة.

في نفس السياق، سيتم البحث في موقف الثـقافة العربـية من موضوع التواصل مع الثقافة الصينية وهذا في ظل تراجع الفعل الثقافي العربي نتيجة عدة عوامل. إلا أن معظم المهتمين بالشؤون العربية في الصين يُـدركون بأن العرب كانوا أمة عظيمة أعطت الكثير للبشرية، ولكنها في الوقت الراهن تجد صعوبات جمة في إعادة بناء نفسها.

في الجهة الأخرى، تعود الثقافة الصــينيــة ذات الأصول الشرقـــــية إلى ساحة التنافس محاولةً كسب تعاطف الآخرين معها والقبول بها. من أكثر ما يميز منظومة القيم في الصين أنها مُتجذرة في القدم غير أنها ليست دينية في تصوراتها وتحتكم إلى ما هو إنساني.

1.المرجعيات الأساسية للقيم الصينية والعربية

المقصود بالمرجعيات مختلف المصادر والموارد والأحداث والأفكار والتصورات والمعتقدات، أي كل ما يغذي منظومة القيم في بلد أو مجتمع ما. ويتفاوت تأثير هذه العوامل في منظومة القيم السائدة حسب ما تمليه الظروف والضرورات.

1. 1 بالنسبة للمجتمع الصيني

تغذت منظومة القيم في الصين،على امتداد فترات زمنية طويلة،من مصادر متشعبة تمسُ مختلف جوانب الحياة، وكان لها تأثير كبير في تحديد سلوك الإنسان الصيني واختياراته ومواقفه اتجاه قضايا الحياة.ليس من السهل حصر هذه المصادر نظراً لما تتميز به الحضارة الصينية القديمة من ثراء متنوع وإبداع متسلسل لم يتوقف طيلة قرون.

1. 1. 1 الأسطورة

يُمكن اعتبار الأسطورة إحدى أهم المصادر التي تغذت منها القيم الصينية، فقد استطاعت أن تبني منظومة من التصورات والمعتقدات الراسخة التي تربى عليها الإنسان الصيني وأصبح يُفسر بها وينظر من خلالها إلى مختلف نواحي الحياة. تنتمي الأسطورة إلى بقية إبداعات الحضارة الصينية وهي بمثابة ضرورة نفسية ومعرفية وعملية يلجئ إليها الإنسان الصيني لمعالجة المسائل والعقبات التي تعترضه. كما تتميز بميلها الشديد نحو الغايات العملية رغم ما تكتنز من ماورائيات.

تضم الأساطير الصينية القديمة قصص مختلفة لنشأة الإنسان الصيني وقدومه لمجال الحياة. كما تقوم، باستخدام نوع من المخيال العميق في تفسير المراحل الأولى لتكون المجتمع الصيني بالاستناد إلى الإرث الإمبراطوري الذي ساهم بمجهود حثيث في تأسيس أسلوب تفكير الصينيين ونظرتهم للحياة ومكوناتها.

تذكر الأسطورة الصينية بأن الصيني خرج واندمج في الحياة بفضل ذلك العمل الجبار الذي قام به خمسة أباطرة كبار وهؤلاء يعتبرون بمثابة النواة الأولى للقيم الصينية.

يُعد الإمبراطور "فوتشي" الذي عاش في حدود سنة 2852 ق.م بمثابة إله الزارعة لدى الصينيين القدامى الذين يُقدسونه وينسبون إليه الكثير من الفضائل لاسيما عندما علم الناس تدجين الحيوان، صيد السمك وإطعام دود القز للحصول منه على الحرير. ويرمز هذا الإمبراطور إلى ميلاد المجتمع الزراعي في الصين.

بعد رحيله، خلفه ابنه (شن نونج) الذي يُقال بأنه أدخل المحراث وأوجد الأسواق والتجارة وساهم في إيجاد نشاطات اقتصادية عديدة. أما الإمبراطور الثالث(هوانج-دي)فهو من أعاد توزيع الأرض على الناس واخترع العجلات وعلم الناس البناء واهتم بالتقويم. بينما عُرف الإمبراطور الرابع (ياو) بصلاح حكمه حتى أنه لما شعر بعجزه عن مواصلة حكمه تنازل عن العرش لفلاح فقير يُدعى (شون) الذي تمسك بالحكمة والفضيلة والأخلاق وهو من أسس أول نظام حكم عائلي في الصين.

تؤرخ هذه القصص لميلاد الإنسان الصيني الذي تفاعل على مدار أكثر من ألف عام مع القيم الزراعية حتى عُرف بكونه إنسان زراعي. ثم استمر تطور المجتمعات الزراعية في الصين القديمة إلى غاية ظهور أشكال الحكم السياسي الإقطاعي، وتعاقب حكم السلالات الإقطاعية المختلفة. كما أن التمعن في هذه الأساطير يوضح مدى تأثر المرجعية القيمية في الصين بشكل كبير بالظروف المحلية مما أعطاها طابعها الخاص.

1. 1. 2 الإرث الإمبراطوري

عندما يجري الحديث عن القيم في الصين فإنما يعني ذلك الحديث عن الثقافة والتقاليد والعادات التي رسختها مختلف السلالات الإمبراطورية الصينية القديمة ومن أهمها أسرة " تشو" التي سيطرت على حياة الصينيين لمدة قاربت حوالي الألف عام.

إن أغلب هذه السلالات هي عبارة عن طبقات أرستقراطية نبيلة كانت محاطة عادة بجهاز فعال من الموظفين وجيوش من العسكر ومارست الحكم في الغالب لفترات زمنية طويلة.مازال الواقع الاجتماعي والسياسي في الصين إلى غاية اليوم متأثراً بهذا الإرث الإمبراطوري الذي وضع تقاليد من الأخلاق والنظم الاجتماعية والمراسم، التي تكاد تبرز في أكثر من سلوك وفعل يقوم به الإنسان الصيني.

على سبيل المثال، يُدرك الإنسان الصيني بأن العلاقات داخل المجتمع هي علاقات هرمية ولهذا لازال يُبجل الأكبر سناً ومرتبةً ويثبت الطاعة لمن هم في مراتب عليا، تماماً كما

كان يحصل عند مبايعة الإمبراطور من خلال رمزية "كوتو" (kowtow) أي الركوع له لإظهار الطاعة و الولاء والاحترام.

1. 1. 3 الفلسفة الكونفوشيوسية

لا تنحصر الإبداعات الفكرية والفلسفية في الصين فقط فيما جاءت به الكونفوشيوسية بل تمتد إلى مدارس أخرى يحتاج التطرق إليها حيزاً هاماً من الكتابة. لذلك تُصادفنا أحياناً عبارة "المئة مدرسة فلسفية " عند الحديث عن الفلسفة في الصين وهذا لتأكيد تنوع الفكر الصيني القديم. في الفترة من القرن السادس إلى القرن الثالث قبل الميلاد، عرفت الصين بروز عدد كبير من المفكرين والفلاسفة الكبار الذين أغنوا الحضارة الصينية بأعمال خالدة من أمثال "لاو تزو" و "كونفوشيوس" و "موتزو" و "منشيوس" و "هسون تزو". يجتمع أغلب هؤلاء حول فكرة التناسق أو التناغم بين الإنسان والطبيعة، بين الفرد والمجتمع وبين الحاكم والرعية، إلى غاية الوصول إلى الوحدة المعمول بها في "تاو" وهي أساس النظام الكوني والطبيعي عند الصينيين.

والحقيقة أن الكونفوشيوسية تعتبر الإطار المرجعي الأساسي للقيم الاجتماعية في الصين القديمة والمعاصرة. لقد بقيت هذه المدرسة العظيمة حية في الوجدان الصيني رغم الإخفاقات والصراعات الكثيرة والمتعددة التي عرفها هذا البلد منذ القدم.تمسكت أغلب الأسر والأنظمة الحاكمة المتعاقبة بهذه المدرسة، منذ القرن الأول قبل الميلاد حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، ومثلت العامل الأكثر تأثيراً في اتجاهات الفكر والثقافة عند الصينيين، فضلاً عن كونها صارت المذهب السائد في العديد من مناطق شرق آسيا رغم تواجد الطاوية والهندوسية والبوذية[(3)].

استطاعت هذه الفلسفة فرض سيطرتها على الواقع الاجتماعي والفكري في الصين نتيجة تركيزها على التقاليد العشائرية وتبنيها للعقلية الصينية التقليدية ولأسس التنظيم الأسري السائد. كما حظيت بتأييد الحكام والأباطرة بعد أن دعت إلى وحدة الدولة واحترام وطاعة الإمبراطور.

وجدت السلالات الحاكمة في الصين في فكر كونفوشيوس الزاد اللازم لتقوية الشعور بالانتماء إلى الأمة الصينية وتقوية مشاعر الدولة الموحدة. نظراً لمكانته الكبيرة، مُـنح كونفوشيوس لقب القديس الأعظم وقبله لقب الملك لأنه جسد بفكره الوحدة السياسية

والدينية للصين.ومعلوم أن الامتحان الديني،عند التعيين في الوظائف، القائم على فكر كونفوشيوس، بقي معمول به في الصين إلى غاية القرن التاسع عشر. في أوائل القرن العشرين، ارتقت إلى مرتبة الديانة الرسمية للدولة الصينية.

1.2 بالنسبة للمجتمع العربي

بالنسبة للعرب، ليست مسألة القيم شديدة الوضوح كما يظن البعض، إلا أن سلوكهم القيمي تطغى عليه عموماً تلك العادات والتصورات القادمة من الجزيرة العربية وما جاورها، بعد أن تمكنت من تعميم ثقافتها وقيمها بفضل العديد من الأدوات كاللغة العربية والعقيدة الدينية المسلمة.

يتوفر العرب وبقية الشعوب التي انصهرت في الثقافة العربية على منظومة قيم غنية صنعتها الأفكار والتقاليد تمتد إلى مرحلة ما قبل الإسلام. بالتالي فإن كل ما يرتبط بمكارم الأخلاق كالشرف، الخير والأمانة وغيرها نجدها في الشعر العربي القديم والقصص والأمثال الشعبية،وهي ليست حكراً على النص الديني.

تتنوع المصادر التي تتغذى منها منظومة القيم العربية ولهذا اخترنا ثلاثة فقط وهي ليست ثابتة بل تختلف حسب الظروف ودرجة تطور ووعي المجتمعات العربية.

1. 2. 1 المنظومة الدينية

لما أتى الإسلام أصبح الدين يؤثر كثيراً في تحديد معنى ومضمون القيم عند العرب، فقام بإخضاع القيم لتعاليمه وصار هكذا مصدر القيم. ويصعب أن ينظر أحيانًا إلى صفاء القيم العربية من خارج المنظومة الدينية. قد يكمن السبب في تراجع قوى العقل والمعرفة الإنسانية لحساب قوى الدين بما أوتيت من اتساع ومن نفوذ تقليدي داخل المجتمعات العربية منذ قرون خلت. تتمتع هذه المنظومة الدينية في الوسط العربي بمكانة عالية جداً ولهذا نجدها في صلب القيم. فضلاً عن هذا، فقد يصعب وضعها محل نقد أو التشكيك في مكانتها لأنها محمية بنظام من الحصانة يتكئ على فكرة التقديس أو الألوهية.

تقوم هذه المنظومة بوظيفة مزدوجة تتمثل في نشر تعاليم الدين وفي نفس الوقت تدعو الأفراد إلى تبني قيم معينة تتناسب مع ما تراه. وعندما تؤدي هذا الدور، تتولى التأثير في هؤلاء لاختيار توجهات معينة في الحياة.

1. 2. 2 العادات والتقاليد

تعتبر العادات والتقاليد واحدة من المصادر الأساسية للقيم العربية التي تصنع المعايير وتستخدم كمبررات لوصف أو تحديد السلوك المرغوب فيه. تنبثق العادات والتقاليد من التطبيع الاجتماعي وقد يتعرض من يخرج عنها إلى غضب المجتمع ويضعه أحياناً محل نقد شديد.كما أنها تعتبر مقياس للحكم على صحة السلوك، وهي بذلك تؤثر في رغبات الفرد العربي وميولاته وتجعله مقيد بسلسلة من القواعد تحد من حرياته.

رغم ما توصف به من صفات سلبية، فهي تلعب دور محوري في الحفاظ على التماسك الاجتماعي وتديم فضائل الاستقرار داخل البيئات العربية.

1. 2. 3 الأســرة

يتعلم الإنسان العربي قيمه القاعدية من الأسرة التي تربى فيها. يعتبرها أهل الاختصاص بمثابة النواة الأساسية التي تتولى غرس القيم القاعدية في الفرد العربي بالإضافة إلى كونها مجال لنقل السلوك المعتاد من الأبوين إلى الأبناء. وتتم هذه العملية في أغلب الأحيان دون قصد. بعد الأسرة، يتعلم القيم من القبيلة والمجتمع الذي يعيش فيه، وقد يصعب عليه فرض قيمه الأسرية على القيم المجتمعية خاصة إذا حدث شرخ بين الاثنين وبلغ حد تتناقض فيه القيم الأسرية مع القيم التي تبثها البيئة الاجتماعية.وقد يشتهر الإنسان العربي باحتفاظه بقدر عالي من الولاء لأسرته ولقبيلته حتى وإن فرضت عليه الأحوال قيم جديدة، تعطيه حرية أفضل وفرص أكبر للنجاح في حياته.

2. التشابه والاختلاف بين القيم العربية والصينية

إن منظومة القيم لدى الصينيين والعرب مُـتشعبة ومعقدة، ويعود ذلك لاعتبارات كثيرة. فالصين بلد كبير يتكون من قومية "الهان" الغالبة بالإضافة إلى 55 قومية أخرى من بينها قوميات مسلمة.

من جهة أخرى، فإن العالم العربي تعيش فيه أعراق وجماعات دينية وعقائدية،لهذا تتباين مثلاً مسألة فهم وممارسة العروبة والإسلام من فئة لأخرى و من بلد لآخر.وقد نجد في البيئة العربية المسلمة جماعات متفتحة تتوفر على مجال واسع من الحريات وأخرى منغلقة على نفسها. بالتالي، يصعب وضع جدول دقيق يتضمن بالتحديد العناصر التي تشملها

المنظومة القيمية لكل طرف. وهكذا، وعملاً بمبدأ تيسير الفهم، ارتأينا تناول التشابه والاختلاف بين المنظومتين من خلال العناصر الآتية:

2. 1 الأخـــلاق

تحتل الأخلاق مكانة كبيرة لدى الصينيين وهي موضوع ثري وتناولها فلاسفة الصين القدامى خاصة كونفوشيوس وتلاميذه في الكتب الأربعة وأمهات الكتب الخمس[4]،لهذا سنكتفي بما جاءت به الكونفوشيوسية.

إن الكونفوشيوسية مليئة بالحكم والقيم وهي تتحدث إلى الإنسان ككل رغم أنها نشأت في بيئة معينة تخص المجتمع الصيني القديم بظروفه التاريخية والسياسية وغيرها. كان الحكيم كونفوشيوس في القرن السادس قبل الميلاد يجوب الأقاليم الصينية ليُعلم الناس الأخلاق قبل أن يصبح رئيساً للوزراء في ولاية " لو"، فأمر حينذاك بفرض مبادئه الأخلاقية وقام باستعمال حكم الإعدام ضد السراق ولم يستثني العاملين في الدولة.

إن المذهب الأخلاقي عند كونفوشيوس هو أهم شيء ويُعتبر أحد الأسباب التي ساهمت في انتشار فلسفته في الصين. يقوم مذهبه الأخلاقي على مبدأين هما : "جن"، وتعني الحب والاهتمام ببقية البشر. يقول في هذا " أحب لغيرك ما تحبه لنفسك". أما " لي" فالمقصود بها الأخلاق والتقاليد والطقوس واللباقة. يُكثر كونفوشيوس الحديث عن حب الناس وحسن معاملتهم وإتباع قواعد الأدب في المعاملة.تتضمن كتاباته الكثير من العبارات التي تؤكد على احترام الأكبر سناً ومقاماً والوالدين، وعلى طاعة الصغير للكبير. بالنسبة اليه، تصب هذه القواعد في خانة واحدة هي المحافظة على فن العيش المشترك بين الصينيين الموروث من القدم.لا تقتصر الأخلاق عنده على الفرد العادي وإنما تمتد إلى الحاكم الذي عليه أن يكون متشبعاً بها.

يؤكد كونفوشيوس على عنصر الأخلاق الصالحة التي قوامها الإخلاص ويتابع ذلك بتقديم مجموعة من الخصائص في وصفه للشخص المثالي أو نموذج الإنسان الحكيم،وهي: الأخلاق، الاعتماد على النفس، التأهب و الاستعداد، الاستقامة، الإخلاص، الإحساس بمتاعب الشعب، التودد إلى الناس، الطباع القوية الحازمة، تولي الوظيفة الرسمية، التسامح وطيبة الخاطر، تزكية الأكفاء، العمل النزيه المنفرد، التصادق، تقبل المسؤولية وتحملها، الأدب والسلوك الحسن والاحترام والتواضع[5].

إن الشخصية المثالية لدى كونفوشيوس هي موضوع إنساني محض تشكلت بتضافر مجموعة من المعطيات البشرية. والملفت أن الخالق لم يكن له دخل في تشكيلها كما هو الشأن في العقيدة الدينية المسلمة، حيث نجد أولاً الأنبياء تتبعهم شخصيات مثالية أخرى كالصالحين والصديقين.

بالنسبة لكونفوشيوس، يعتبر الحكماء والملوك في العصر القديم بمنزلة الشخصيات الفاضلة العظيمة ونجده يخصص تسعة موضوعات في كتب " الحوار" لمشاعر التقدير والاحترام للملوك والحكماء القدامى.لكنه رأى بأن الحكماء يجسدون نموذج الشخصية المثالية ويصف ذلك بأسلوب أدبي جميل: "يجب أن تتفق أخلاق الحكيم مع السماء والأرض، وأن يتساوى وضوح صراحته مع نور الشمس والقمر، وأن يتسم تقدمه وتراجعه بنظام فصول الأربعة، وأن يكافئ الآلهة ويُعاقب الشياطين بقدر ما أتوا به من الخير والشر"[6].

بعض التعبيرات الواردة في نص كونفوشيوس لا تمد بصلة للجانب العقائدي السائد في المنظومات القيمية العربية المسلمة، إلا أن فكرة الخير تبرز بقوة لديه التي يجب أن يأخذ بها الحكيم الذي يجسد الشخصية القدوة. الملاحظ أن مكافئة الحكيم في فكر كونفوشيوس الذي يتطلع إليه الناس تتم من خلال المعاملة والمكانة التي يحظى بها من طرف المجتمع و ليس بواسطة جزاء آخر (الجنة عند العرب والمسلمين).

وعليه، فإن الحكماء يتحصلون على جزائهم في حياتهم وبعد موتهم من خلال احترام الناس لهم ولإنجازاتهم، فيتحولون إلى شخصيات مقدسة تعيش في النفوس ولا تندثر. لا يحدد كونفوشيوس هذه الشخصية المثالية بإطار زمني معين إذ يمكن أن تنشأ في أي عصر إذا توفرت الشروط الأخلاقية اللازمة. طبعاً، تختلف هذه الميزة عن التصور العربي الذي ينسب كل ما له علاقة بنشأة الشخصيات النموذجية "العظيمة" إلى الماضي.

تحضـــرُ الفضيلة أيضاً في نصوص كونفوشيوس وتلامذته، فهو من نطق بها قبل ظهور الأديان السماوية الرئيسية كالمسيحية والإسلام، وتنسب إليه الكثير من أقوال الفضيلة البارزة مثل: " ما لا تتمناه لنفسك لا تتمناه لغيرك، وألا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يفعل بك، ولا تتوان في فعل الخير ولو كان ضئيلاً، ولا تشترك في عمل شرير ولو كان بسيطاً ، لا تنظر ولا تسمع ولا تفعل ما يخالف القانون". وهذه المبادئ تداولها العرب.

كذلك، في سياق دعوته للأخلاق يعطي كونفوشيوس أهمية بالغة لتعليم الناس التفكير السليم واستخدام قدراتهم العقلية ليتمكنوا من التمييز بين الصواب والخطأ والعيش والعمل في الحياة معتمدين على مجهودهم الذاتي. وهذه السمة نجد لها أيضاً حضور كبير في ثقافة العرب عموماً. يملك كونفوشيوس حكم عظيمة في هذا الموضوع صارت عالمية لما لها من مدلولات سامية يمكن لأي شخص أن يستوعبها. من هذه الحكم لدينا: " لو أنك قدمت لرجل سمكة لوفرت له وجبة؛ ولو أنك علمته صيد السمك للقنته حرفة؛ وإذا أردت أن تُدبر قوتك لعام آتِ فانثر بذراً؛ وإذا أنفسح خيالك لعشر سنين فاغرس شجراً؛ أما إذا كنت تُعنى بشؤون غيرك فزودهم بالمعارف، ذلك أنك حين تنثر البذرة تحصد مرة، وإذا أنت غرست الشجر، حصدت مرات عشراً، لكنك حين تبذر المعارف تتيح حصاداً لمائة من الأعوام"[7].

توجد أدوات تتدخل في نشر الأخلاق بين الناس حث عليها كونفوشيوس،لكنها لم تلقى نفس الاهتمام من طرف العرب والمسلمين ماعدا في سياقات محددة. وتعتبر الموسيقى إحدى هذه الوسائل حيث رأى فيها أداة لتهذيب نفوس البشر وتعليمهم المودة والطباع الحسنة. فدعى إلى تدريسها لجميع الناس لأن لها دور في إصلاح المجتمع كونها وسيلة لمعالجة النفس والتقرب من الآلهة حتى أنه رأى أن الخير شديد الصلة بالموسيقى[8]. وهذه الفكرة لا نجد لها حضور قوي في الأدبيات القيمية العربية المسلمة وأغلبها، خاصة المستندة إلى الدين، ترفضها وتصنفها ضمن المحُرمات، ولو أن هناك من رجال الدين المسلمين من يجيز أنماط محددة من الموسيقى.

رغم الفوارق، نجد أغلب الصفات و التعاليم الأخلاقية التي ناد بها كونفوشيوس متضمنة في مختلف النصوص الدينية والقيمية والأدبية لدى العرب.يُجسد الرسول محمد (صلى) المثال الأعظم بالنسبة لمسألة الأخلاق عند العرب المسلمين، ويعتبر أكمل البشر خلقاً بعد أن قال فيه الله عز وجل "وإنك على خلق عظيم". وذكر الرسول في حديث مشهور **"إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق"**.

تُـبين هذه النصوص بأن الأخلاق عند العرب مصدرها إلهي ويكون الجزاء كبيراً لمن يتصف ويعمل بها، خاصة باطنياً، لهذا فهي تمتد إلى النوايا والمقاصد.

ولأن الأخلاق عند العرب تدخل ضمن عبادة الله، فإن الجزاء الحقيقي لصاحبها يكون في الآخرة وليس في الدنيا. أي الغاية النهائية هي إرضاء الخالق الذي يعود له الفضل في خلق

النفس الطيبة لدى الإنسان ويوجهه نحو الطريق الصحيح.وفي حديث رواه أنس قال رسول الله (صلى): "إنَ العبدَ ليبلغُ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة،وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة، و إنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درك من جهنم وهو عابد".

كذلك أخذت الأخلاق مكانتها لدى الأدباء والكتاب العرب الذين اعتبروها أساس بقاء المجتمع والوسيلة الأنسب لتغيير ذهنية وسلوك البشر. من هؤلاء الشاعر الكبير أحمد شوقي الذي قال في بيت مشهور ورد في قصيدته إنما الأمم الأخلاق :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

نُـدرك تماماً أن البعد الإنساني يطغى على موضوع الأخلاق في الثقافة الصينية بما يتسم به من نُبل وسمو والغاية الرئيسية منه تكمن"في إعلاء المصلحة الجماعية الاجتماعية ثم مصلحة السلطة الإمبراطورية ومصلحة العشيرة باعتبارها نقطة انطلاق ونهاية مطاف كل الأعمال الفردية"[9]. وهكذا تُعد الأخلاق الصينية التي تطرق إليها كونفوشيوس عبارة عن تجارب نابعة من الحياة الصينية لا غير.

يتفق الإسلام والكونفوشيوسية في الدعوة إلى تكريس الأخلاق وبعث الفضيلة والخير، ولكنهما يختلفان من حيث الوسائل المعمول بها وكيفية الوصول إلى ذلك وأيضاً بالنسبة للغاية من نشر الأخلاق.

ما هو واضح أن المنهج الأخلاقي عند العرب والمسلمين يبقى يرتكز بصفة غالبة على المرجعية الدينية، بينما في الكونفوشيوسية يغدو الإنسان مصدر الأخلاق.

2. 2 الــــدين و الإيمان

يعيش الإنسان الصيني مع الكونفوشيوسية وكأنها دين رغم أن الدين بالمعنى المتداول في البيئة العربية لم تعرفه المجتمعات الصينية القديمة وبقي محصور في تلك الديانات القادمة من الخارج (البوذية والإسلام والمسيحية) التي لم يكن لها تأثير واسع.

لم يكن كونفوشيوس نبياً ولم يدعو إلى إتباع ديانة سماوية معينة، لكن فلسفته تدعو في غالب الأحيان إلى نفس الغايات التي تدعو إليها مختلف الديانات السماوية في مجال الأخلاق والفضيلة والدعوة إلى نشر الخير والتحلي بالصفات الحميدة.إلا أنها تتخذ مسار مختلف لما تبيح الطقوس والمراسم التقليدية في عبادة الأسلاف وتقديم القرابين.

كان كونفوشيوس يُجيز أن يقوم الناس بالشعائر والطقوس وباحترام الأرواح والشياطين مادام هناك من يعتقد بها، لكنه كان ينصح بالابتعاد عنها لأنه يعتبرها "معتقدات طفولية".في نفس الوقت، لم يكن مهتماً كثيرا بأمور الغيب والأرواح التي تشكل جزء هام من الثقافة الصينية. فلما سأله أحد تلامذته حول خدمة أرواح الموتى، أجابه: إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم.وسأل عن الموت، فقال: "إذا كنت لا تعرف الحياة فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئاً عن الموت" [10].

إذن لم يكن كونفوشيوس شخصية دينية ولكنه عمل بفكره وفلسفته على تكريس نوع من المعتقدات الدينية للصينيين واعتبرها من العوامل التي تجسد وحدتهم، وهي تتمثل في[11]:

- الإله الأعظم إله السماء، وكان يقيم له الإمبراطور في الماضي احتفالاً سنوياً تقدم فيه القرابين،
- إله الأرض، وآلهة أخرى تتبع الشمس والقمر والكواكب والسحاب والجبال،
- آلهة تجسدها أرواح الآباء والأجداد والأسلاف،
- أرواح خبيثة ترفرف من حولهم وعليهم برد عدوانها بالأدعية والقي والسحر،
- السحر والتنجيم لكشف المستقبل، مما يستدعي اللجوء إلى السحرة والعرافين،
- تقديم القربان للموتى ويكون في العادة شيئاً من الطعام للموتى ويرسلون الدعوات الصالحات لأرواحهم.

عند تفحص كتابات كونفوشيوس نجده يصف نفسه بألفاظ فيها قدر عالي من الحكمة والمعاني الروحية، فذكر بأنه معروف لدى السماء التي قال عنها بأنها لن تخذله وتفهمه. في مجال المعرفة، قسم الناس إلى أربع درجات فقال عن صاحب الدرجة الأولى " رجل وهبته السماء المعرفة وأوتي الإلهام وهي من أعلى الدرجات".

يصعب تحديد ما يعنيه كونفوشيوس بمصطلح السماء ولكنه كان يقصد به إرادة أعلى، ولا يتردد عند الحديث عن نفسه في الإشارة إلى هذه الإرادة الأعلى. يُـؤثر عنه من قوله: "وقتما كنت في الخامسة عشر وقفت نفسي على الاطلاع، فلما بلغت الثلاثين توطدت معلوماتي، فلما أصبحت في الأربعين زالت شكوكي، وفي الخمسين ميزتُ إرادة السماء، وفي الستين كنت مستعداً للإصغاء إليها، وفي السبعين تيسر لي إطاعة رغبة قلبي دون أن أتجاوز ما هو حق"[12].

في مجال الإيمان، يصعب التوفيق بين الإسلام والكونفوشيوسية، لأن الإله واحد عند المسلمين بينما في الكونفوشيوسية نجد،كما أشرنا إليه،التقديس يمتد من إله السماء الذي تقدم إليه القرابين من طرف الإمبراطور إلى آلهة أخرى كإله الأرض الذي يعبده عامة الناس وآلهة تخص الشمس والقمر والسحاب والجبال. أيضاً، يمتد التقديس إلى أرواح الأجداد.

من ناحية الشكل، يصعب أيضًا التوفيق بين المنظور القيمي المسلم والصيني. فمثلاً تميل الكونفوشيوسية إلى المراسم وتدعو إلى الركوع أمام الإمبراطور(ابن السماء) والأكبر سنًا وقدرًا. بينما تمنع التعاليم الإسلامية ذلك وتأمر بالركوع لله وحده. والحقيقة أن الكثير من الشعوب في آسيا تقوم بهذا السلوك ليس بغرض الإذعان وإنما لإظهار الطاعة والاحترام لشخص ما.

لا توجد في اللغة الصينية كلمة "الله" كما تُكتب هكذا وكل ما دعا إليه كونفوشيوس أن تحترم الطقوس والعبادات التي تركها الأجداد. هذا أمر مميز في حد ذاته بالنسبة إلى لغة شرقية قديمة تمتد إلى أكثر من 3500 عام(13). وَلد غياب هذه المفاهيم الدينية المحورية الموجودة في الديانات السماوية الكبرى في بعض الأحيان سوء فهم. على سبيل المثال، عندما أرسل لويس الرابع عشر المترجمين الأوائل اليسوعيين إلى الصين في القرن السابع عشر قاموا بمهمتهم ولكنهم تناسوا أن النصوص المترجمة كان لابد أن تحتفظ بسياقها الحضاري والروحي الأصلي، مما لم يُمكن الترجمة المكرسة من المحافظة على روح النص.

من بين هذه النصوص نجد " ييجينغ" أو الكتاب المقدس للحكمة الصينية، وهو نص مؤسس للفكر الصيني يعود تاريخه إلى الألف الأول قبل المسيح الذي جرى الإنقاص من قيمته عند ترجمته من طرف الرهبان الفرنسيين الذين لم يستوعبوا ولم يتقبلوا محتواه الذي يُـقدم تفسيراً لسير العالم دون تدخل إله خالق.

يُلخص أهل الاختصاص في الحكمة الصينية القديمة مضمون هذه الوثيقة أي "ييجينغ" فيقولون: "هو عبارة عن مجمع من 64 موقفاً نموذجياً، كل وضع يظهر بتجميع سمات مستمرة متصلة، منظمة وفق ستة مستويات متراكبة"(14).

يلجأ الصينيون، إلى غاية اليوم، لهذا الجدول بغية تفسير أمور حياتهم ومنها مسألة تحديد جنس الجنين. ووجه عدد من رجال الدين المسلمين نقد لاذع لمن يعمل بهذا الجدول في مثل هذه المواضيع التي تعود إلى الله وحده.يعكس هذا النموذج نوع من العبادة لدى

الإنسان الصيني الذي بقي إنسان زراعي يؤمن بالصدفة بل يدع الأمور تسير بتلقائية. ويتضح بأن هذا التوجه يتعارض مع تصورات الإنسان العربي المسلم الذي يعتقد بأن الكون وكل ما فيه يسير بإرادة خالق.

إن هذا الحضور القوي لعوامل الطبيعة والغيب في ثقافة الإنسان الصيني لم تلغيه الكونفوشيوسية بل حافظت عليه والإنسان يعيش حسب ما تمليه الوقائع اليومية وهو يتصرف دون أي قوة غيبية سماوية.

ينبغي أن نلاحظ، فضلاً عن هذا، أن قضية الجنة والنار ليست متداولة في الكونفوشيوسية، ومسألة الآخرة والقيامة غائبة، عكس القضاء والقدر. يُفسر هذا بوجود ميل لدى الإنسان الصيني منذ القدم إلى المنظور الدنيوي وانحصار اهتماماته فيما يجري في الحياة الواقعية، ولذلك فهو لا يعير إلا القليل من الاهتمام إلى الوازع الديني، وهذه صفة تميزه عن شعوب الشرق.

يرى معظم الصينيين أن لديهم القليل من المشاعر والعقائد الدينية وحياتهم خالية منها تقريباً، مما يفسر سلوكهم المتسامح في جانب الاعتقاد في الأديان وميلهم نحو الفكر الدنيوي الذي جعلهم يتعاملون مع قضايا الحياة من خلال أسلوب نفعي واقعي. لذا قيل عنهم بأنهم "مجتهدون وكادحون ويتحملون مشقات العمل، وعادات حياتهم متقشفة ومقتصدة،وقانعون بنصيبهم ويشعرون بالرضى الذاتي ومسالمون، ويقومون بالواجبات الإنسانية ويذعنون لمشيئة الأقدار"[(15)].

من جهة أخرى، أعتبر غياب القيود الدينية إحدى أسباب نجاح التجربة الاقتصادية في الصين مما يوفر حرية أكبر للناس. يمتد هذا إلى باقي المجتمعات الآسيوية الناجحة المتأثرة بالكونفوشيوسية التي تمكنت من خلق مناخ اجتماعي يتسم بدرجة عالية من التسامح الديني كما هو حال سنغافورة. إن تشديد الكونفوشيوسية على الاهتمام بالقضايا المدنية والاجتماعية والواجبات الأخلاقية الصارمة جعلها أداة بيد الدول،خاصة في المجتمعات الآسيوية المتأثرة بالثقافة الصينية، لفرض مستوى عال من الانضباط المدني.

هناك من يرى بأن الكونفوشيوسية ليست مجرد فلسفة من صنع الإنسان ولا تتعارض مع إرادة الخالق بل هي مثل الدين تشرح وتضع أسباب الوصول إلى الحقيقية الأبدية، كما أن الاطلاع على ما جاء فيها يتيح التعرف على صفات الله الذي يشار إليه بمصطلح السماء. مع

العلم أن هناك من أتباع كونفوشيوس كالفيلسوف موتزي (381-470 ق.م) من قام بتشخيص إله السماء بشخص عظيم يشبه الآدميين[16].

لم يكن كونفوشيوس معارضاً للمعتقدات التي وجدها في بلاده بل ساهم بفكره في ترسيخها.وتشكل هذه الأخيرة في بعض الأحيان وجه من أوجه التعارض التام مع نظيرتها في البلاد العربية. ومن هذه المعتقدات مسألة خلق الكون. تروي الأساطير الصينية القديمة أن الكون جاء نتاج لمجهود جبار قام به مخلوق صيني أسطوري يُدعى "بان قو Pangu"، الذي قدم خدمة عظيمة لجميع المخلوقات عندما تمكن من فصل السماء عن الأرض وذلك خلال 18 ألف سنة. احتاج ذلك إلى مجهود جبار وصبر طويل جعل "بان قو" يموت مباشرة بعد إتمام عمله الشاق. عند هذه اللحظة، تحولت أطراف جسده إلى الشمس والقمر والنجوم، وإلى الحقول والأعشاب والأزهار والأشجار[17].

إن هذه القصة هي جزء من نظام الإيمان لدى الصينيين الذين يتوفرون على رصيد ثري من الأساطير والمعتقدات تختلف عن الكتب السماوية ومن بينها القرآن الكريم الذي أشار إلى أن الله خلق الكون في ستة أيام. قال الله تعالى في سورة الأعراف الآية 54 ﴿**إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشي الليلَ النهارَ يطلبهُ حثيثاً والشمسَ والقمرَ والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُ العالمينَ**﴾.

في الثقافة الصينية القديمة، تحث الأسطورة المذكورة على معاني إنسانية سامية هي المثابرة والإصرار والكفاح من أجل نيل المبتغى في الحياة، بينما لدى الإنسان العربي المسلم ليست الحياة، إلا مرحلة عابرة والآخرة أي عالم ما بعد الموت هي الأبقى مثلما ورد في سورة الأعلى ﴿**بل تُؤثرون الحياة الدُنيا والآخرةُ خير وأبقى**﴾.

عندما تصل هذه القراءة إلى المحرمات والممنوعات تتسع طبعاً أوجه الفرق بين القيم العربية والصينية والقائمة طويلة،إذ تشمل المأكل والملبس والجنس والمرأة وغيرها. فيما يخص مسألة الفطنة والدهاء في المعاملات التجارية لدى الإنسان الصيني، ترجعها بعض الكتابات الغربية إلى المرجعيات الثقافية الصينية القديمة التي تُجيز للإنسان الصيني استعمال هذه الأدوات. والمعروف أن كونفوشيوس لم يحرمها برغم نهجه الأخلاقي الصارم. هذه السلوكيات يطعن فيها الكثير ولكن الإنسان الصيني لا يستطيع الاستغناء عنها لأنها تُعد أحد

أسباب نجاحه، حيث تمكنه من إضعاف الشريك أو الخصم والتفوق عليه بواسطة إعطاء مثلاً معلومات خاطئة للتعتيم والإرهاق أو لإخفاء عناصر قوته وضعفه[18]. كما تُـعتبر هذه الوسائل مشروعة وتندرج ضمن منظومة القيم في الصين.

لاعتبارات عقائدية، يمتنع أكثرية العرب عن اجراء هذه المقارنة، ويحضر هذا السلوك كثيراً في البيئة العقائدية المسلمة التي تعطي لنفسها بفعل تداخل الكثير من الأمور العقائدية والتاريخية مكانة مُـتعالية.رغم هذا، فهي تبقى غير قادرة على استيعاب مسألة وجود منظومات إنسانية قيمية مُتجانسة ومتشبعة بالفضيلة دون أن تكون دينية في جوهرها.وتنطبق هذه الميزة على مختلف المجتمعات المـُتدينة التي ترى نفسها دائمًا أفضل من المجتمعات غير المـُـتدينة. في العصر الحالي، تبدو المجتمعات الأقل تديناً أكثر انضباطاً وأكثر ديناميكية وازدهاراً من المجتمعات المُتدينة والأمثلة كثيرة وهي ظاهرة تحتاج إلى تفكير.

2. 3 الأســـرة

يُــعد نظام الأسرة الذي دعت إليه الكونفوشيوسية ومجمل المدارس الثقافية الصينية القديمة من أكثر العناصر تشابهاً مع نظام الأسرة في البيئة العربية المسلمة،ولكن هذا لا ينفي وجود أوجه اختلاف أساسية.

إن الأسرة والعشيرة شيء مقدس في الثقافة التقليدية الصينية وهي مفهوم له دلالات عقائدية لأنه يتضمن عبادة الأجداد والأسلاف. بمعنى أن رب الأسرة الذي يتوفى وتكون له فضائل كثيرة على عائلته يتحول مع مرور الزمن إلى شخصية مقدسة لدى خلفه، وهو أمر لا يتوافق مع القيم السائدة في البيئة العربية.بالنسبة لكونفوشيوس، تعتبر الأسرة أساس البناء الاجتماعي تماماً مثلما هو موجود لدى العرب،وأصبغها برؤية قدسية.

تصور كونفوشيوس البناء الاجتماعي تماماً كالبناء الأسري "فكما تكون العلاقات في بنية الأسرة، تكون العلاقات في المجتمع، من ضمن تسلسل رتب الاحترام والتبجيل من الابن الأصغر إلى الابن الأكبر إلى الأب إلى آخر ما هنالك من رتب أسرية وعشائرية"[19].

وفقاً لكونفوشيوس، لا تتحدد هوية الإنسان الصيني بانفراد بل تأخذ معناها من خلال علاقاته مع الجماعة المنتمي إليها، مركزه فيها، سنهُ وترتيبه في العائلة الكبرى. وانتقلت هذه القاعدة إلى النظام الإمبراطوري في تحديد علاقاته بالرعية.

كانت لكونفوشيوس مواقف توصف بالسلبية اتجاه المرأة التي لم يخصص لها حيزاً كبيراً في كتاباته حتى أن هناك من يقول بأنه كان شديد الحقد على النساء نظراً لتجربته الفاشلة في الزواج وهو شاب صغير في السن. فقد قال فيهن: "احذر لسان المرأة، انك لاشك ستلدغ منه إن عاجلاً وإن آجلاً.."[20]. يتجلى بأن كونفوشيوس لم يعطي المرأة أية أهمية ولم يلبسها أي نوع من القداسة وغيرها من الصفات التي نجدها في النصوص العربية-المسلمة، مثلما امتنع تماماً عن الدخول في تصور مكانتها داخل منظومة الأخلاق.

لا يوجد في الكونفوشيوسية ما يمنع الرجل الصيني من الزواج من امرأة من أصول غير صينية وتنطبق هذه الصفة أيضاً على المرأة الصينية. فيما يخص الممارسة الجنسية وعكس المنظومة القيمية العربية لم تمنع الكونفوشيوسية ممارسة الجنس خارج الحياة الزوجية، وقد نجد في الصين عادات تعطي للمرأة أحيانًا حرية إقامة علاقات جنسية مع أكثر من رجل. لكن هذه المسألة تبقى حميمية جداً ولا يتم التطرق إليها بعفوية داخل المنظومة الاجتماعية الصينية.

في الجانب السياسي، يرى بعض الكتاب إن صرامة نظام العشيرة في الثقافة التقليدية الصينية ساهم في استقرار نظام الحياة الاجتماعية وكذلك في حل مشكلة ترتيب توارث السلطة بين الحكام في الصين لاسيما في الزمن الإقطاعي. في قضية توارث الحكم لا تختلف كثيراً الثقافة الصينية القديمة عن مثيلتها لدى العرب حيث عندما يتوفى الملك أو الحاكم يتولى منصبه الابن الأكبر للزوجة الأولى.على ذلك، فإن "تصور الصينيين لنموذج الدولة ينطلق من مفهوم القاعدة العشائرية القائمة على أساس علاقة قرابة الدم"[21]ويتواصل الإخلاص إلى هذا المبدأ الأسري إلى غاية الإخلاص إلى الملك والحاكم.

لو أسقطنا هذه الخاصية على البيئة العربية، سنجد بأن نفس المرجعية موجودة سواء في العقل السياسي العربي أو في الأنظمة السياسية المتوارثة، حيث تنشئ وتشتغل منظومة الدولة عادة وفقاً للنسب العائلي والعشائري قبل تغليفها بمفاهيم سياسية.

في الحياة الواقعية، يعتمد الإنسان الصيني مثل الإنسان العربي كثيراً على عائلته وعشيرته ويصل ولائه لها إلى أقصى الحدود، كما أن مكانته تتحدد من خلال العلاقات المتبادلة مع محيطه الاجتماعي. وتمتد هذه العلاقة من القضايا الشخصية والعائلية إلى القضايا الاقتصادية والنفعية. في مجال التجارة والمال، تتحول هذه الروابط إلى شبكة من

المصالح يديرها أشخاص يعرفون بعضهم البعض ويخضعون إلى الوازع العائلي حتى وإن عاشوا في أماكن بعيدة عن بلدتهم الأصلية.

يمكن الوقوف عند هذه السلوكيات بمجرد التمعن في كيفية تداخل أنشطة الجاليات الصينية في الخارج. إن مفهوم "الشبكة Réseau " ومفهوم " الارتباطاتGuanxi"[22] هي سلوكيات تميز نشاط الجاليات الصينية في الخارج،ويعود مصدرها إلى نظام الأسرة والقيم العائلية الصينية الموروثة. نتيجة ذلك، يحصل الفرد على مكانته في وسطه الاجتماعي من خلال قدرته على التواصل المستمر مع جماعته بإفادتها أو تقاسم المنافع معها.

عند فحص العناصر المكونة لنظام الأسرة والعشيرة في الثقافة الصينية نجدها تتشابه كما أشرنا إليه مع نظيرتها في البيئة العربية في جوانب شتى. على سبيل المثال، فإن نظام رب الأسرة في الثقافة التقليدية الصينية، الموجود كذلك في الثقافة العربية (النظام الأبوي)، يحتل مكانة عالية وهو يُجسد مبدأ الطاعة المطلقة حيث يخضع له جميع الأفراد.

على أن نظام الأسرة و العشيرة في البيئتين الثقافيتين، رغم محاسنه الكثيرة، تعرض إلى انتقادات اعتبرته مصدراً يُساهم في بلورة نزعة الاستبداد وتكريس حكم الشخص، لما يقوم به من تقليص لاستقلالية الفرد وتحجيم لرغباته. هناك من يرى أن التنشئة الاجتماعية التي يكرسها هذا النظام من خلال فرض مبادئ الطاعة والولاء للأكبر وعدم التمرد عليه تخدم النموذج السياسي الصيني والعربي على حد سواء.

2. 4 الحاكم

صنف كونفوشيوس في كتاب "الحوار" الملوك في العصر القديم بمنزلة الشخصيات العظيمة إلى جانب الحكماء ونجده يخصص تسعة موضوعات في كتابه "الحوار"[23] لمشاعر التقدير والحنين والاحترام للملوك والحكماء القدامى. لكنه في آخر الأمر يمنح الأفضلية للحكماء.

عند تطرقه إلى مسألة الاستقامة أو مبدأ (يي)، رأى كونفوشيوس أن الحاكم أو الإمبراطور (ابن السماء) يجب أن يتحلى بهذا المبدأ المرتكز على معاني أخلاقية صرفة (السلوك الحسن، تقبل المسؤولية وتحملها، الإحساس بمتاعب الشعب..). كما نادى بتهذيب الذات وإذا لم يلتزم الإمبراطور بذلك "فيكون من المستحيل إدارة شؤون الدولة وتعميم

الهدوء والاستقرار في أنحاء البلاد"[24]. ويذهب بعيداً عندما يُذكَر الحاكم الذي لا يلتزم بهذه الأخلاق بفقدان مكانته وتسليط السماء عليه من رعيته من يخلعه.

كما أشار إلى حتمية توفر عامل الثقة بين الحاكم والشعب ودعى الحكام إلى التقيد بمبدأ الاستماع إلى الشعب واعتبر ثقة الناس بالحكام من أهم شروط بقاء الدولة وهو ما ذكره في كتاب الأغاني.كما نبه الحكام إلى ضرورة التقيد بإرادة الشعوب التي جعلها مثل إرادة السماء متصوراً بأن هناك " اتصال وثيق ومستمر بين السماء والشعب".يقول أيضا " إن بقاء الحاكم أو الأمير يتوقف على رغبة السماء أو إرادتها التي هي إرادة الشعب، فإذا نال الحاكم عطف الشعب وحبه فإن السماء تنظر إليه بعين الرضا وتوطد عرشه. أما إذا فقد حب السماء وعطفه فإنها تصب غضبها عليه، و من ثم يفقد دولته"[25].

وعى كونفوشيوس الحكام بالابتعاد عن الظلم معتبراً إياه أشد فتكاً بالبشر من الوحوش الكاسرة. كما دعاهم إلى ضرورة اختيار الشخصيات الصالحة والمستقيمة لشغل المناصب العامة. عندما يتوفر هذا الشرط الأخير فإن الدولة تتطهر خلال جيل واحد ويرتفع الشعب إلى مستوى عال من الحضارة. لكنه أصر من جهة أخرى على إخلاص وتقدير العامة من الناس للحاكم عندما يقوم بتسيير أمورهم بجدارة وبعطف.

هناك تقارب في وجهة النظر بين الثقافتين العربية والصينية بالنسبة لإعلاء مكانة الحاكم ولواجب طاعته (قوله تعالى ﴿**يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾)، وكذلك فيما يخص صلاح الحاكم. غير أنهما لا تحددان بوضوح طريقة تولي الحكم ولا يرسمان بدقة شكل وتنظيم نظام الحكم، بالإضافة إلى قضية مراقبة أو محاسبة الحاكم أو الإمبراطور.

هذا الأمر يُفسره غياب نظرية سياسية تاريخية لدى الجانبين تتناول وتحدد بدقة منظومة الدولة ونظام الحكم.غير أن بعض المهتمين بالفكر السياسي الصيني يقولون بأن العديد من تلاميذ كونفوشيوس مثل "منشيوس" دعوا إلى النظام الملكي القائم على سلطان المتعلمين.

رغم مكانتها، لم تسلم فلسفة كونفوشيوس من انتقادات الكثير من المثقفين الآسيويين المعارضين لها والمدافعين عن الطابع الكوني للقيم الغربية ومنهم الصيني المنشق "يو يانغ"[26]، الذي ركز على فكرة استعمالها من طرف الكيانات السياسية في آسيا كأداة لتحقيق الإخلاص للسلطة.

لم يتردد هذا الأخير في كتابه المعنون "الصيني البشع و أزمة الثقافة الصينية" في إصدار نقد لاذع للتراث الكونفوشيوسي و اعتبره سبب تأخر الإنسان الصيني لقرون عديدة. و يعطي "يو يانغ" مثال يتعلق بالمرسوم الإمبراطوري الصادر في عهد سلالة "هان"الذي بموجبه تم تحريم الصيني، من كان، أن يناقش موضوعًا لم يناقشه أستاذه لفظًا أو كتابة، مما أدى إلى ابتعاد الناس عن التفكير والإبداع والمبادرة. وكان الغرض من ذلك حسبه هو تكريس ثقافة الإذعان بين عامة الناس لمن هو فوقهم.

كما أن هناك من يرى بأن تعاليم كونفوشيوس التي تدعو إلى توقير المجتمع العشائري المقسم تقسيما صارماً إلى درجات يكرس الطاعة العمياء للسلطة سواء كانت سلطة رب الأسرة أو سلطة المجتمع، ولا تعير أي اهتمام لتنمية روح الاستقلالية والمبادرة والإبداع لدى الفرد. عندما يتربى شخص ما في هذا النظام الاجتماعي التقليدي تتولد لديه سمات الإذعان للسلطة العليا دون قيد أو شرط.حول هذا الموضوع، يقول كاتباً صينياً : " في الأصل كل صيني مقهور، وفي الوقت نفسه إمبراطور أيضاً. وعندما يغلق على نفسه باب بيته، فإنه يصبح إمبراطوراً بالنسبة لزوجته وأطفاله. وعندما يغادر بيته، ويظهر طبيعته الثانية المسالمة والتي تتميز بالطاعة والاحترام، ويتقن فلسفة رب خسارة رابحة،ويبتسم في مواجهة المشاكل، فإنه وقتئذ يُصبح مقهوراً ".[27]

أما المؤيدون لفلسفة كونفوشيوس فهم كثيرين و منهم "لي كوان يوLee KuanYew" مؤسس سنغافورة. تخرج لي من كلية الحقوق من جامعة كامبردج ويلقب بكاهن القيم الآسيوية. تولى حكم بلاده منذ انفصالها عن ماليزيا سنة 1965 إلى غاية 1990، وكانت حينذاك مليئة بمظاهر البؤس. ويعتبر من المدافعين عن تيار القيم الأسيوية ويراها السبيل الناجع لبلوغ التقدم المنشود والمحافظة على التماسك الداخلي.

دعا "لي كوان" إلى بناء نظم سياسية منبثقة من القيم الأسيوية المستمدة من الكونفوشيوسية والطاوية والفلسفات الشرقية الأخرى، وإلى نموذج أسيوي للتطوير يوافق بين التوريث السياسي والتحديث الاقتصادي.[28]

المُـلاحظ أن المؤلفات العربية والصينية القديمة لم تتطرق إلى المفاهيم المتعلقة بالتعددية السياسية وإلى مسألة التداول على الحكم.نجد من يعتبر التمسك بالاستقرار السبب الرئيس الذي يدفع الإنسان الصيني إلى تجنب البحث عن تغيير الأوضاع والقبول بها وكأنها

قدر محتوم. ويُعد السعي وراء نهج البحث عن السكينة وتجنب الفوضى من المواضيع التي ركزت عليها الكونفوشيوسية عندما دعت إلى ضرورة " تهدئة المشاعر الشعبية، وجعل الشعب لا يعرف إلا القليل، وتقليل رغباته حتى لا يثير الفوضى"[29].فيما يخص الحداثة السياسية، ليست متطلبات الحرية السياسية والديمقراطية والمساواة ضمن المقومات الأساسية للثقافة الصينية، كما أن اللغة الصينية القديمة لم تكن تعرف مصطلحات الحرية السياسية والديمقراطية والجمهورية، بل يعود التعرف عليها واستخدامها إلى بداية القرن التاسع عشر بعد نقلها عن اليابانيين.

يتقاسم العنصر العربي هذه الميزة مع نظيره الصيني لأنه يحترز بدوره من مفاهيم الديمقراطية والحرية السياسية التي نشأت وترعرعت في الغرب بل لم ينجح، رغم محاولات كثيرة، في بناء نظرية سياسية للحكم تحتكم للعقل وتعمل بمبدأ التطور.يخضع هذا الوضع لأكثر من تفسير. يرى الدكتور محمد عابد الجابري أن العقل السياسي العربي بقي متأثراً بالمقولات والأطروحات والإيديولوجيات السلطانية الاستبدادية الموروثة عن حضارات الشرق القديم وهو لازال محكوم بثلاثة محددات هي القبيلة، الغنيمة والعقيدة التي لم يستطيع التخلص منها رغم إلزاميات الحداثة والاحتكاك الحاصل منذ أكثر من قرن مع الحضارة المعاصرة. ويعتقد الجابري أن هذه العوامل الثلاثة التي قامت بتغليفها الحداثة وأصبحت تُشكل "المكبوت الاجتماعي والسياسي" لم يتمكن المجتمع العربي من تجاوزها، بل عادت في الوقت الراهن لتسود الساحة العربية وتجعل الحاضر مُشابهًا للماضي.[30]

خاتمة

تتشابه المنظومة القيمية الصينية والعربية في الكثير من الجوانب الأخلاقية لكن هناك اختلافات عميقة بينهما مثلما جرى تبيانه في هذا المقال.

إجمالاً ورغم تقوقع القيم الصينية في بيئة اجتماعية آسيوية محدودة، باتت هذه القيم اليوم في موضع أحسن مقارنة بما كانت عليه في بدايات القرن الماضي، واليوم يمكن ملاحظة تراجع تلك الأصوات، خاصة في الغرب، التي طالما حاولت تسويق فكرة " الخوف من العالم الصيني". من جهة ثانية، صارت السلطات الصينية تتعامل بجدية أكبر مع كل ما يمد بصلة لموضوع الثقافة في علاقاتها بالعالم الخارجي وهو ما يظهر في تبنيها لمفهوم القوة الناعمة ضمن استراتيجيتها الخارجية حتى يكون لها تأثير ثقافي يخدم أهدافها الحيوية.

لقد اتسعت مساحة القبول بالمكون الثقافي الصيني نتيجة التطور الاقتصادي المذهل الذي حققته الصين وبفعل مهارة الانسان الصيني في التكيف مع الآخر دون إلحاق الضرر به. وهذه مسألة تستند الى الثقافة الصينية والى فكر كونفوشيوس الذي يدعو الى تجنب الصدام ولا يشير في فلسفته الى مقت الآخر لأسباب عرقية أو دينية.

تبنى العنصر الصيني أسلوب ناعم مكنه من التكيف مع بيئة عالمية شديدة التعقيد، بينما تزحزح الجانب العربي إلى مستويات متدنية لأسباب مختلفة منها تجذر ثقافة الاستبداد وصعود جماعات التطرف الديني إلى واجهة الأحداث، بالإضافة إلى تراجع العمل العقلي ومشاهد الإبداع.

هناك توقعات تقول بأن المنظومة الثقافية الصينية تتجه لترتقي، بفضل التطور الاقتصادي و التكنولوجي المحقق، إلى مرتبة التأثير في الآخر وقد تتحول في المستقبل إلى ثقافة عالمية. تظل هذه التوقعات محدودة لأن الصين الحالية لم تخرج بعد من سياق إشكالية التراث والمعاصرة، ولم تتمكن من تحصين نفسها ضد إرهاصات الليبرالية الاقتصادية الحاملة لقيم الغرب.

في الوقت الراهن، لا توجد دلائل كثيرة تؤكد تأثير القيم الصينية في المنظومة القيمية العربية والعكس صحيح. يكمن السبب في عدم دوام وقلة أشكال التواصل الثقافي بين العالمين الصيني والعربي لاسيما بعد خيار الصين التقوقع على نفسها نتيجة ظروف سياسية داخلية، وذلك في فترات مختلفة من تاريخها. كما أن العالم العربي تعرض الى انتكاسات وهزات متتالية بفعل عوامل داخلية وخارجية جعلته يفقد مكانته كقطب للإشعاع الثقافي والحضاري.

من ناحية أخرى، فإن التعامل مع موضوع القيم من قبل الطرفين يحتل قدر من الأهمية في ظل الضغوطات القادمة من البيئة الخارجية. وعليه، فإن كلاهما له مصلحة أكيدة في الدفاع عن نمط القيم الشرقية أمام نمط القيم الغربية التي تسعى لتفرض نفسها كقيم انسانية عالمية رغم ما تحمله من تهميش واستصغار للآخر.في الجانب السياسي، يمكن أن تكون القيم الصينية والعربية مورد للاحتماء من الضغوطات التي تطرأ بفعل تباين النظم السياسية في النظام الدولي.

عموماً، إن اللجوء الى منظومة القيم يساعد على فهم سلوك الإنسان الصيني وطبيعة خياراته في المنطقة العربية وحتماً سيسمح بتصحيح عدد من الأحكام المسبقة وأي سوء فهم لهذا المكون البشري الشرقي.

الهوامش

(1)- نسبة إلى كونفوشيوس، ولد سنة 551 ق.م في شمال الصين و توفي سنة 479 ق.م. و هو فيلسوف صيني أقام مذهباً يتضمن التقاليد والعادات الصينية و يرتكز على الأخلاق. و بالصينية يُدعى كونغ فوتسو أي الملك الفيلسوف.

(2)- Pascal Morchain, Psychologie sociale des valeurs, Edition Dunod, Paris : 2009, p. 160.

(3)- الطاوية تعني المنهج أو الطريقة في نشوء و تكوين الوجود بأسره، الطاو هو الخالق، و كل أشياء الطبيعة هي أرواح. أما الهندوسية و البوذية فقد دخلت إلى الصين سنة 67 ق.م و صارت من الديانات الرئيسية في البلاد.

(4)- الكتب الأربعة هي: رسالة العلم الكبير، رسالة المحاجة الوسطى، كتاب الحوار، كتاب منفوشيوس، أما أمهات الكتب الخمس فهي: كتاب التاريخ، كتاب التغيير، كتاب تقلبات الزمن، كتاب الطقوس و حوليات الربيع و الخريف.

(5)- وو بن، الصينيون المعاصرون، التقدم إلى المستقبل انطلاقا من الماضي، الجزء الأول، ترجمة: عبد العزيز حمدي، الكويت، عالم المعرفة، جوان 1966، ص.135.

(6)- نفس المرجع السابق، ص. 127.

(7)- ميشيل موسى، عندما تموت الأساطير يظهر الحب العام و السلام العالمي، القاهرة: دار الشروق، 2016،ص86.

(8)- عمر عبد الحي، الفلسفة و الفكر السياسي في الصين القديمة، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط1، 1999، ص. 188.

(9)- وو بن، مرجع سبق ذكره، ص.169.

(10)-Mirza Tahir, Confucius était un Prophète ?, in : www.muslimvillage.com, le 23 mai 2017 à 17h43.

(11)-IBID.

(12)- Entretiens de Confucius, Anne Cheng, in :www.babelio.com/auteur, le 29 mai 2017 à 10h40.

(13)- اللغة الصينية هي لغة أحفورية تعتمد الكتابة الرمزية لم تتغير أسسها منذ 3500 عام و هي تميز المعنى عن اللفظ. و يوجد في الصين أكثر من 1500 لغة محكية.

(14)-Cyrille J-D Javary, « le Yi Jing, Bible de la Sagesse Chinoise », in : www.lemondedesreligions.fr, le jeudi 25 mai 2017 à 14h31.

(15)- وو بن، مرجع سبق ذكره، ص.146.

(16)- MirzaTahir Ahmad, op-cit.

(17)- وو بن، مرجع سبقذكره ، ص.88.

(18)- Taieb Hafsi et Li Yan, « la culture stratégique chinoise, comment les gestionnaires peuvent-ils s’en inspirer ? », Revue Gestion, Montréal, n°3 volume 41 automne 2016, p.41.

(19)- عمر عبد الحي، مرجع سبق ذكره، ص. 191.

(20-وو بن، مرجع سبق ذكره، ص. 106.

(21)- Taieb Hafsi, Li Yan, op-cit, p. 42.

(22)-كتاب الحوار،كونفوشوس فيلسوف الصين الأكبر، ترجمة محمد مكين: المطبعة السلفية، القاهرة، 1954، ص 86.

(23)-عمر عبد الحي، مرجع سبق ذكره، ص. 184.

(24)-نفس المرجع السابق، ص. 185.

(25)-نفس المرجع السابق، ص. 187.

(26)-ولد في الصين و تنقل للعيش في تايوان، و هو مؤرخ و كاتب و صحفي اشتغل في منظمة العفو الدولية.

(27)-وو بن، مرجع سبق ذكره، ص.154.

(28)-مارون بدران، لي كوان يو، حكاية فرد صنع تاريخ دولة، جريدة القبس، الكويت، عدد 15315أ الصادرة يوم 20 جانفي 2016، ص. 06.

(29)- وو بن، مرجع سبق ذكره، ص.145.

(30)-محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت أكتوبر 1995، ط3، ص.373.

